أكبر دليل على ذلك ، ومما يشهد له أيضاً ما ذكره علماء التراجم والتاريخ أن المكتفي الخليفة قال للحسن بن العباس: أريد أن أوقف وقفاً ، تجتمع أقاويل العلماء على صحته ، ويسلم من الخلاف ، قال: فأحضر ابن جرير ، فأملى عليهم كتاباً لذلك ، فأخرجت له جائزة سنية ، فأبى أن يقبلها ، فتقدّم بذلك ، وعظم في نفوسهم[1].

الطبري فقيهاً شافعياً:

الفقه الشافعي نسبة إلى مؤسس المذهب الشافعي الإمام محمد بن إدريس القرشي المطلبي ٢٠٤هـ الذي نشأ في مكة ، وأخذ الفقه وعلوم القرآن على علمائها ، ثم ارتحل إلى المدينة فتفقه بالإمام مالك بن أنس ، رحمه الله تعالى وسمع منه «الموطأ» وأخذ الحديث وعلومه عن علماء المدينة ، ثم رحل إلى العراق وأخذ فقه الرأي عن الإمام محمد بن الحسن ، وناظر العلماء ، وظهر تفوقه ، وبرزت عبقريته ومنهجه الأصولي ، ومعرفته بالحديث والجدل والمنطق ، وصنف أول كتاب في أصول الفقه «الرسالة» ، ثم أملى كتابه الفقهي «الأم» الذي يمثل آخر آرائه واجتهاداته ، ويحدد مذهبه الجديد المعتمد.

وانتشر المذهب الشافعي في الحجاز والعراق والشام ومصر وبلاد فارس وغيرها ، وظهر في القرن الثالث الهجري عدد كبير من أصحاب الإمام الشافعي الذين قاموا بنشر المذهب في مختلف البلاد ، منهم أبو ثور الكلبي البغدادي ٢٤٠هـ وإسحاق بن راهويه ٢٣٨هـ والمزني ٢٦٤هـ والزعفراني ٢٦٠هـ شيخ الطبري في الفقه ، والربيع بن سليمان الجيزي ٢٥٦هـ والربيع بن سليمان المرادي ٢٧٠هـ ومحمد بن إدريس بن المنذر ، أبو حاتم الرازي ٢٧٧هـ ومحمد بن نصر المروزي ٢٩٤هـ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٠، البداية والنهاية ١١/ ١٤٩.

صاحب الطبري في رحلته وطلبه للعلم ، وسليمان بن الأشعث ، أبو داود السجستاني ٢٧٥هـ وعثمان بن سعيد ، أبو سعيد الدارمي ٢٨٠هـ وعاش بعضهم إلى القرن الرابع الهجري كالطبري ٣١٠هـ وأبي سعيد الإصطخري ٣٢٨هـ وابن سريج ٣٠٦هـ وأبي حامد المروزي ٣٦٢هـ وأبي العباس بن القاص ٣٣٥هـ وأبي بكر بن المنذر ٣١٠هـ وغيرهم.

ويتسم الفقه في القرن الثاني الهجري بالقوة والنشاط ، والاعتماد على الاجتهاد المستقل وحرية الرأي لكل عالم أو فقيه ، بينما برز الفقه في القرن الرابع الهجري في المذاهب الفقهية ، وتقيد معظم الفقهاء والعلماء بمذهب معين ، والتزموا بأصوله ومعظم فروعه ، ويندر أن يخرجوا عنه ، وإن بلغ كثير منهم إلى درجة الاجتهاد في داخل المذهب ، دون الاستقلال عنه ، وعاش الطبري معظم حياته في القرن الثالث الهجري ، واستكمل عمره في العقد الأول من القرن الرابع ، فظهرت فيه صفات الفقه وميزاته للقرنين الثاني والرابع[1].

فقد فتح الطبري عينيه على دراسة الفقه على المذهب الشافعي ، وترعرع في بلده على دراسته على علماء بلده ، ونما تعمقه بدراسة المذهب الشافعي أثناء رحلته العلمية ، والتقائه بعلماء المذهب الشافعي وفقهائه في العراق والشام ومصر ، مع أنه درس الفقه على المذهب الظاهري ، والمذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، لكنه توسع في التفقه على المذهب الشافعي ، والتزم الإفتاء به مدة طويلة ، وتقيد بأقواله وآراء الأصحاب فيه.

ولما ارتقى الطبري في العلم والفقه ، وبلغ مرتبة الاجتهاد ، بقي اجتهاده محصوراً في الفقه الشافعي ، ومعتمداً على الأصول المقررة في

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي، البربري والسبكي والسايس ص ١٩٩، ٢٩٠، تاريخ التشريع الإسلامي، الشهاوي ص ١٢٩، ١٩١، الطبري، الحوفي ص ٢٣٣.

المذهب ، واعتبر من الأصحاب في المذهب الذين تعتبر أقوالهم وآراؤهم وجهاً في المذهب ، وهذا باتفاق المؤرخين والمترجمين وأصحاب الطبقات.

ثم تقدم الطبري درجة أخرى ، ووصل إلى مرتبة الاجتهاد المطلق ، واعتمد قواعد مستقلة ، وأصولاً معينة في اجتهاده ، وصار صاحب مذهب مستقل ، كما سنرى في الفصل التالي.

ولكن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين الأخيرتين لم تكن واضحة ومتميزة ، ولم تحدد بزمن معين ، ولذلك حصل الاختلاف بين العلماء في المرحلة الأخيرة ، أما المرحلة قبل الأخيرة فهي ثابتة ومتفق عليها وهي أن الطبري كان فقيهاً شافعياً ، وكان أحد الأصحاب في المذهب الشافعي ، وأفتى بآراء المذهب ، وعلمه إلى غيره.

وهذا ما صرح به الإمام الطبري نفسه ، فقال: «أظهرت فقه الشافعي ، وأفتيت به ببغداد عشر سنين ، وتلقنه مني ابن بشار الأحول ، أستاذ أبي العباس بن سريج»[1].

ونقل أصحاب التواريخ عن أبي محمد الفرغاني قال: «حدثني هارون ابن عبد العزيز (وهو من أهم رواة كتب الطبري) قال: قال لي أبو جعفر الطبري: أظهرت فقه الشافعي ، وأفتيت به ببغداد عشر سنين ، وتلقنه مني ابن بشار الحول أستاذ ابن سريج» قال الفرغاني: «فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبحثه إلى ما اختاره في كل صنف من العلوم»[2].

وجاء الشيخ أبو عاصم العبادي ، وهو من كبار فقهاء الشافعية ، وممن صنف في طبقات فقهاء الشافعية ، فذكر الطبري في فقهاء

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٢٣ ، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٧٥.

(٢) اختلاف الفقهاء ص ١٦.

الشافعية ، وقال: «هو من أفراد علمائنا»[1].

وهذا ما أكده ابن السبكي فقال: «فإن ابن جرير معدود من أصحابنا ، لا يمتري أحد بذلك»[2].

الطبري مجتهداً مطلقاً:

والواقع أن الإمام الطبري لم يتوقف في طلب العلم وتحصيله ، والتوسع فيه ، والتبحر في الفقه ، فارتقى في درجات الاجتهاد ، ووصل إلى الاجتهاد المطلق ، وهذا ما صرح به أبو محمد الفرغاني بقوله السابق: «فلما اتسع علمه أداه اجتهاده وبحثه إلى ما اختاره».

وهذا ما فهمه أيضاً ابن السبكي من إشارة ابن الرفعة ، وتعليقه عليه ، فقال: «وإنما قصد ابن الرفعة بهذا الكلام الإشارة إلى أنه ، وإن كان مجتهداً مطلقاً ، معدود من أصحابنا ، فليلتحق قوله بهذا بالمذهب ، ويعدُّ وجهاً فيه»[3].

وخلاصة القول ـ فيما أرى ـ أن الطبري وصل إلى درجة الاجتهاد ، وتوفرت فيه شروط الاجتهاد المطلق ، وأن هذا محل اتفاق العلماء ، ولذلك أجمعت كتب التراجم والطبقات على وصفه بالاجتهاد ، فقال الإمام الحافظ الذهبي عنه: «الإمام العلم ، المجتهد ، عالم العصر ، ابن جرير الطبري ، صاحب التصانيف البديعة» ثم قال: «وكان من كبار أئمة الاجتهاد»[4].

وهنا يرد السؤال المهم والدقيق ، وهو: هل بقي الطبري على المذهب الشافعي ، ويعتبر أحد أتباعه ، وصاحب رأي ووجه فيه ، بعد أن بلغ

---

(١) تهذيب الأسماء ١/٧٩.
(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٣/١٢٧.
(٣) المرجع السابق.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٤/٢٦٧ ، ٢٦٩.